موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب باوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة السابعة

www.coptology.com

Coptology

ⲉⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة السابعة

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠١٠

www.coptology.org

جدول المحتويات

الحضور المتجسد للابن الكلمة، ابن الآب ٣
التنازل الإلهي:..... ٥
الظهور المبارك: ٧
"أشرق جسدياً" في ثيئوطوكية الإثنين ٨
اعتراضات الفلسفة اليونانية على تجسد الكلمة: ١٠
الكائن مع الآب وهو في الجسد..... ١٢
الكائن مع الآب وهو في الجسد حوَّل إلى أقنومه بداية الخلقة الجديدة:..... ١٣
الحضور المتجسد للابن الكلمة في الكون هو حضوره الذاتي المتجسد:..... ١٦
الكلمة الذاتي والكلي القدرة:..... ٢٠
الحضور المتجسد بعد ١٦ قرناً من الزمان:..... ٢١
قدَّس الجسد (تجسد الكلمة ١٧: ٥) ٢٢
تجسد وحضور الكلمة المتجسد، والثقافة الإنسانية:..... ٢٣

الحضور المتجسد للابن الكلمة،
ابن الآب

تغيَّر اسم عيد تجسد الرب عندنا إلى عيد الميلاد، بسبب تغلغل الثقافة الغربية منذ احتلال مصر في عام ١٨٨٢م، وبسبب نسيان التعليم الرسولي الآبائي، وقد ظهر ذلك فيما شاع من تراتيل وفدت مع حركة الإرساليات الأوروبية، وما صيغ من تراتيل أخرى نظمت على نسقها.

ولعلنا نلاحظ عِظَم الفرق بين قطع الصلوات الليتورجية التي تسلط الانتباه على الإله المتجسد الذي أخذ صورة العبد (فيلبي ٢: ٦)، وغيرها من التراتيل التي تسلط الانتباه وتشده إلى "الطفل" يسوع، مثل هذه الترتيلة البريئة المظهر:

"في مزود البقر كان نايم مبسوط
النونو الصغير،في التبن محطوط
والبقر بينعَّر وصوته مسموع
وهو مُش خايف، ما تبكيش يا يسوع".

فالليتورجية المسيحية لم تعرف هذا التدهور الذي ساد في العبادة في العصر الحديث بسبب الانبهار بما جاء به المُرسَلون.

لذلك يتحتم علينا أن نعود إلى كتاب تجسد الكلمة لكي نستقي منه التعليم الرسولي عن الحضور المتجسد للابن الكلمة، وهو التعليم الذي صِيغ في عبارة موجزة هي ملخص عام وموجز لتجسد الرب. وقد أخذنا عنوان هذه المحاضرة عن كتاب "تجسد الكلمة – فصل ١٨: ٢".

فالتجسد ليس احتفالاً بـــ "النونو الصغير"، وإنما هو احتفالٌ بتنازل الله لكي

يكون ذلك "النونو". والفرق بين النتائج التي تترتب على مثل هذه التراتيل الشعبية، وبين ما ينبني على عبارات التقوى الأرثوذكسية في الصلوات الليتورجية، هو ذاته الفرق بين النتائج المترتبة على تعليم العصر الوسيط، والنتائج المترتبة على التسليم الرسولي الذي تعبر عنه عبارات صلوات الليتورجية، ويكفي أن نقارن كلمات الترتيلة التي أشرنا إليها، وبين التعبيرات الفخمة الواردة في صلاة القسمة التي تقول:

"أيها الكائن الذي كان، الذاتي الأزلي قبل الأكوان،
الجليس مع الآب،
الوحيد معه في الربوبية،
عنصر المراحم ...
أنت وحدك نزلت من حضن أبيك إلى بطن البتول،
وصرت كحقيرٍ،
ومشيت على الأرض كإنسان،
وهذا هو العجب في اتضاعك.
المذود حملكَ كمسكين.
الخرقُ لفَّتْكَ.
الأذرعُ حملتْكَ، ورُكَبُ البتول عظَّمتكَ.
الفم قبَّلكَ (فمُ العذراء والدة الإله).
اللبن غذَّاكَ، أنت الذي تقوت كافة الخليقة من نعمتك".

(صلاة القسمة للابن سنوي).

ولا تكتفي صلوات الليتورجية بشرح أن المتجسد هو الكائن الجليس مع الآب، وأنه جاز مراحل الحياة الإنسانية بدأً بالحمل والولادة ورعاية الأمومة تأكيداً على إنسانيته الكاملة، بل هي تضع كل ذلك في دائرة التدبير الخلاصي الذي سبق أن تنبأ عنه أنبياء العهد القديم، وبالتالي نصل إلى هدف هذا التدبير في آدم الثاني هكذا:

"السلام لبيت لحم مدينة الأنبياء[١]
التي وُلِدَ فيها المسيح آدم الثاني".
(القطعة السابعة من ثيؤطوكية الاثنين).

وبهذه المناسبة، فإننا نلفت الانتباه إلى أن التعليم اللاهوتي الوارد في الثيئوطوكيات لا زال يحتاج إلى شاعرٍ ينقله إلى لغة عربية سهلة؛ لكي ينقذ العقيدة من الضياع، ولنا عودة إلى آبائية الثيئوطوكيات إن شاء الرب وعشنا.

لكن يلزمنا الآن أن نقف طويلاً أمام التعليم الرسولي الآبائي عن "الحضور المتجسِّد للابن الكلمة" كما ورد في كتاب تجسد الكلمة:

١– التجسد هو إعلان، أو ظهور الكلمة الكلي العظمة في الجسد (١: ٣).

٢– هو ظهور الكلمة في الجسد البشري لأجل خلاصنا بسبب صلاح أبيه ومحبته للبشر (١: ٣).

٣– هو ظهور المخلص بيننا، ونزوله إلينا لكي يظهر بين البشر (٤: ٢).

لقد كان الكلمة ساكناً فينا قبل السقوط (٥: ١)، ولكن بعد سيادة الموت، وسيادة وعمومية الفساد، وعجز التوبة عن تجديد الإنسان؛ نُزِعت عنَّا نعمة مماثلة صورة الله (٧: ٣ – ٤).

التنازل الإلهي:

"نزل إلى عالمنا الكلمة الله الذي بلا جسد، عديم الفناء ... مع أنه لم يكن بعيداً عنَّا قبل (تجسده)؛ لأنه لم يترك جزءاً من الخليقة

---

(١) عندما ذكر شيخ الإسقيط (الأب متى المسكين) "إن بيت لحم هي مسقط رأسنا" كان يقصد ميلاد آدم الثاني الرب يسوع. ولكن قامت الدنيا ولم تقعد؛ ... لأن "المولود" عند الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، هو "طفل المذود"، لا "الله الكلمة" الذي وُلِدَ طفلاً.

خالياً منه، إذ هو يملأ الكل، وأيضاً مع أبيه، لكنه أتى إلينا في تنازله، ليُظهر محبته لنا".

(تجسد الكلمة ٨: ١).

الكلمة كائنٌ في كل زمان ومكان، وهو "**ليس بعيداً عنا**"، لكن القصد من تجسده لم يكن – كما يذكر معلمنا العظيم – أن "**يظهر فقط**" (٨: ٣)؛ لأن الله أظهر ذاته بعدة طرق في العهد القديم (عب ١: ١)، ولكنه الآن "**أخذ جسداً من الجنس البشري**" (٨: ٣) "**وأعدَّهُ أداةً وهيكلاً، وجعله جسده الخاص ليسكن فيه ويُظهر ذاته به**" (٨: ٣).

وسكنى الكلمة في الجسد تعني سكنى الله الدائم في كيانه البشري؛ لأنه يُظهر نفسه دائماً "متجسداً".

ويقدم القديس أثناسيوس هذا التشبيه البليغ:

"عندما يدخل أحد الملوك العظام إلى مدينة كبيرة، ويسكن في أحد بيوتها، فإن المدينة كلها تكرمه أعظم تكريم، ولا يجرؤ عدو أو عصابة أن تدخل المدينة، أو تحطمها ... هكذا كان الحال مع ملك الكل ... لأنه قد جاء إلى عالمنا وسكن في جسد مماثل لأجسادنا".

(تجسد الكلمة ٩: ٣ – ٤).

فالتجسد ليس فقط إعلاناً عن عظمة محبة الله، بل هو الكرامة الإلهية التي نالتها الطبيعة الإنسانية، مثل كرامة المدينة الكبيرة التي تنال كرامة حضور وسكنى الملك العظيم، لكن هذا ليس وضعاً مؤقتاً؛ لأن تجسده يؤكد أن الكلمة "**لم يتخلَّ عن الجنس البشري**" (١٠: ١).

الظهور المبارك:

لم يكن الهدف من ظهور الكلمة مجرد التجسد، بل كان للتجسد هدفاً عظيماً، وهو خلاص الإنسانية. فخلاص الإنسانية هو السبب الأول ضمن أسبابٍ أخرى "**لضرورة ولياقة ظهوره المبارك**" (١٠: ٦). فالتجسد هو ظهور في الجسد، ولكنه ليس مجرد "ظهور"، بل هو "**الظهور الخلاصي للمخلص في الجسد**" (٢٩: ٣)، لأن أعمال الرب الخلاصية من معجزات مثل طرد الشياطين وغيرها هي أعمال "**عُملت بالجسد كعلامة للقيامة**" (٣١: ٤)، وإذا كانت هذه الأعمال هي أعمالٌ دائمة "**تشهد له يوماً فيوماً**" (٣٢: ٦)، إلاَّ أن هذا "الظهور المبارك" لم يقتصر على تلك الأعمال، بل كان له أكثر من عمل عظيم:

* علَّم العالم عن الآب،
* أبطل الموت،
* وهب عدم الفساد للجميع بوعد القيامة (٣٢: ٦).
* هو حلولٌ بين البشر (٣٥: ٦)
* هو ظهورٌ كإنسان بميلاد من العذراء (٣٧: ٣).
* لأنه "ظهر في الجسد لأجلنا" (٣٨: ٢).
* هو ظهورٌ للمسكونة ولكنه أيضاً "إشراق" (٣٧: ٤)؛ لأن النبوة تقول: "الرب الإله أشرق علينا" (مزمور ١١٧: ٢٧).

هذا الإشراق يؤكده القديس أثناسيوس في المقالة الثانية في الرد على الأريوسيين؛ لأنه يؤكد به مُلك المسيح الرب:

> **"أنا أقمت منه ملكاً على جبل صهيون المقدس"** (مزمور ٢: ٢٦)؛ **لأنه "حينما أشرق جسدياً" على صهيون لم يكن هذا بداية وجوده أو بداية ملكه، بل لأنه كلمة الله والملك الأبدي، فإنه بحسب بشريته**

حُسِبَ كمَن أشرق بملكه على صهيون؛ لكي يفدي الكل من سلطان الخطية، ويجعل الكل تحت سلطان مملكة الآب".

(ضد الأريوسيين ٢: ٥٢).

"أشرق جسدياً" في ثيئوطوكية الإثنين

لقد حان زمان تأصيل كل ما جاء في كتب وصلوات الكنيسة، ورده إلى أصله الآبائي. فالأسبوع الليتورجي يبدأ بثيئوطوكية الإثنين، وهي تتحدث عن سقوط آدم وبشارة "رَدِّهِ إلى رئاسته" في تسع قطع، ومرد كل قطعة هو:

"أشرق جسدياً من العذراء بغير زرع بشر؛
لكي يخلصنا (حتى خلصنا)".

وتؤكد هذه الجواهر الثمينة الآبائية:

"تحنن الرب من قِبَل (بسبب) محبته للبشر".

(القطعة الثانية).

تلك المحبة التي تجلت في تجسد الكلمة وحلوله فينا:

"يسوع المسيح الكلمة،
الذي تجسد وحلَّ فينا ⲁϥϣⲱⲡⲓ ⲛ̀ϧⲏⲧⲉⲛ
ورأينا مجده".

(القطعة الثالثة).

بل في رقة ودقة لاهوتية فائقة، وبعد أن تضع كلمات (يوحنا ٣: ١٦) في قالبها الليتورجي تقول:

"افرحوا وتهللوا يا جنس البشر:
لأنه هكذا أحب الله العالم،
حتى بذل ابنه الوحيد عن المؤمنين به،
لكي يحيوا إلى الأبد.

لأنه غُلِبَ من تحننه،

وأرسل لنا ذراعه العالية".

(القطعة الخامسة).

ونلاحظ أن هذا هو نفس الإيقاع الروحي والموسيقي واللاهوتي لما ورد في تجسد الكلمة.

وتتابع الثيؤطوكية شرحها، وبشارتها:

"السلام لبيت لحم مدينة الأنبياء

التي ولد فيها المسيح آدم الثاني؛

لكي يرد آدم الإنسان الأول الترابي إلى الفردوس،

ويحل قضية الموت".

(القطعة السابعة).

وتتناغم بيت لحم مدينة آدم الثاني في ثيؤطوكية الاثنين مع ما ورد في الرد على الأريوسيين ٢: ٦٧[١].

* ولأن المسيح هو "النور"، وهو الاسم الإلهي "يهوه" في العهد القديم، فقد جاء النور الحقيقي (يوحنا ١: ٩) الذي أشرق جسدياً[٢].

"الله هو نور، وساكن في النور.

---

(١) "إذن علينا أن نداوم القول إنه عندما صار إنساناً، فإنه عندئذ فقط أخذ "الأعمال". لأنه عندئذ أكملها أيضاً شافياً جراحنا ومانحاً إيانا القيامة من الأموات. لأنه إن كانت "الأعمال" قد أعطيت عندئذ للكلمة أي عندما صار جسداً، فإنه يكون واضحاً أنه عندما صار إنساناً فإنه حينئذ أيضاً "خُلِقَ لأجل الأعمال". إذن فلفظ "خَلَقَ" لا يشير إلى جوهره — كما قلنا مراراً — بل إلى تكوينه الجسدي. ولأن الأعمال صارت ناقصة ومشوهة بسبب التعدي، لذا يقال عنه إنه "خُلِقَ" من جهة الجسد، لكي بعد أن يكمل هذه الأعمال ويتمم صنعها يحضر الكنيسة إلى الآب كما قال الرسول "لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدسة وبلا عيب". **إذن فقد كمُل فيه الجنس البشرى، وأُعيد تأسيسه كما كان في البدء، بل بالأحرى بنعمة أعظم من الأول. لأننا بعد القيامة من بين الأموات لن نخاف الموت بعد، بل سنملك في السموات مع المسيح على الدوام**".

(٢) لاحظ أن التعبير القبطي أعطيتنا روح البنوة Ⲁⲕϯ ⲛⲁⲛ ⲙⲡⲓⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲛⲧⲉ ϯⲙⲉϣⲏⲣⲓ وهو روح الابن ربنا يسوع المسيح أي الروح القدس (غلاطية ٤: ٤ – ٥) وبالتالي البنوة هنا هي شركة النعمة في بنوة الابن للآب وهي وحدها التي تجعلنا نقول: أبَّا أيها الآب.

تسبِّحه ملائكة النور.

النور أشرق من مريم".

(القطعة التاسعة).

هذا الإشراق، أو نور المسيح هو نور التعليم أيضاً (تجسد الكلمة ٤١: ٧)[١].

اعتراضات الفلسفة اليونانية على تجسد الكلمة:

ماتت الفلسفة اليونانية منذ زمن بعيد. ربما لفظت أنفاسها بعد موت "ابن رشد"، وتزامنت نهاية مدارس الفلسفة مع مجيء عصر المماليك ثم العصر العثماني. لكن ظل هاجس الأفلاطونية وغيرها يحرك وجدان الإنسان بأن "الجسد"، بل و"الحياة الإنسانية" نفسها حقيرة جداً.

ولكن أثناسيوس في فصل (٤١) يؤكد – في رده على مدارس الفلسفة – أن هذه المدارس قبلت وجود الكلمة في الكون المادي الذي هو أيضاً "جسم" ... فما هو الغريب أو غير اللائق إن قلنا إنه اتحد بالإنسان (٤١: ٥)[٢].

والتساؤل هنا جدير جداً بالاهتمام:

* إذا كان تجسده غير لائق،

* كان وجوده في الكون غير لائق أيضاً.

لكن وجود الكلمة في الكون ليس مجرد فكرة في عقل الإنسان؛ لأن الكلمة "**يعطي بعناية نوراً وحركة لكل الأشياء**" (٤١: ٦).

---

(١) "أمَّا إن كان قد لاق به أن يتحد بالكون، وأن يُعرف في الكل، فإنه يليق به أيضاً أن يظهر في جسد بشري، وأن ينير هذا الجسد ويعمل به؛ لأن البشرية جزء من الكل (الكون كله) كسائر الأجزاء. ولو كان أمراً غير لائق أن يتخذ جزءاً كأداة يُعلِّم البشر بها عن لاهوته، لكان أمراً في غاية السخف أن يعرف بواسطة كل الكون أيضاً".

(٢) "ففلاسفة اليونانيين يقولون أن الكون جسم هائل، وهذا حق؛ لأننا نراه، ونرى أجزاءه واقعة تحت حواسنا. فإن كان كلمة الله في الكون الذي هو جسم، وإن كان – كما يقول الفلاسفة – موجود في كل الكون وفي كل أجزائه، فما هو وجه الغرابة أو السخف إن قلنا إنه اتحد بالإنسان أيضاً".

الله ليس كائناً في الكون كمتفرج، بل هو ضابط الكل (١٧: ١)، وتجسده في جسد بشري محدود، "**لم يجعل الكلمة محصوراً في الجسد. أو أنه بسبب وجوده في الجسد كان كل مكان آخر في الكون خالياً منه. أو أنه بينما كان يحرك جسده كان العالم محروماً من أفعال قدراته وعنايته**" (راجع ف ١٧: ١).

وهكذا يجب أن نفهم أن الحضور المتجسد يعني أنه حاضرٌ أيضاً في كل جزء من الخليقة:

"هو في كل الخليقة،
ولكن حسب جوهره يعلو على الكون،
ولكنه هو في كل شيء حسب قوته".

(١٧: ٢ راجع الأصل اليوناني، تحقيق جامعة أُكسفورد – تجسد الكلمة ص ١٧٤).

ولذلك يقول:

"مع وجوده في الجسد البشري، ومعطياً الحياة له،
فقد كان أيضاً يمنح الحياة للكون كله".

(تجسد الكلمة ١٧: ١).

فالتجسد لم يكن "احتواءً" لله الكلمة الذي – حسب جوهره – يعلو على الكون،

"فهو لم يكن مقيداً بالجسد،
بل بالحري كان يستخدم جسده،
ولذلك فهو لم يوجد في الجسد فقط،
بل كان موجوداً بالفعل في كل شيء".

(تجسد الكلمة ١٧: ٤).

الكائن مع الآب وهو في الجسد

في قسمة عيد الميلاد تُعلن التقوى الأرثوذكسية أن الآب:

"أرسل نوره الحقيقي،
ابنه الوحيد يسوع المسيح،
الكلمة الذاتي.
الكائن في حضنه الأبوي كل حين،
أتى وحلَّ في الحشا البتولي غير الدنس".

(قسمة عيد الميلاد).

ووجود الابن في حضن الآب (يوحنا ١: ١٨) هو إعلان إلهي فائق يؤكده القداس الغريغوري:

"يا سيدنا ومخلصنا محب البشر محيي أنفسنا.
يا الله الذي أسلم ذاته عنا خلاصاً من أجل خطايانا.
الذي بكثرة رحمته حلَّ عداوة البشر.
أيها الإله الوحيد الجنس الذي في حضن أبيه،
يا رب بارك".

(مقدمة القسمة في القداس الغريغوري).

إذن، فكينونة الابن في حضن الآب "كل حين" لم تتغير بتجسد الابن ولا بصلبه ولا بموته ولا بقيامته، ولا حتى بصعوده، فالذي استقر في حضن الآب بعد صعود رب المجد هو الناسوت. والناسوت هو الذي يتحرك على الأرض، وهو الذي يُعلَّق على الصليب، وعندما عُلِّق الرب على الصليب "طهَّر الهواء" وأعدَّ لنا "**الطريق الصاعد إلى السماء ... لأنه إذ رُفع هكذا فقد طهَّر الهواء**" (٢٥: ٥ – ٦).

هنا أيضاً تختلف اتجاهات العصر الوسيط عن لاهوت الإسكندرية وعن صلوات كنيسة الإسكندرية، ذلك أن التغيُّر الذي حدث **لم يكن في أقنوم الله الكلمة،**

وإنما كان في إنسانية الرب، فقد

"حلَّ المخلص بين البشر".

(تجسد الكلمة ٣٥: ٦).

"وظهر كإنسان على الأرض،
وهو الذي لا يُخبَرُ بجيله – حسب الجسد – لأنه لا أحد
يستطيع أن يحدد له أباً حسب الجسد؛
لأن جسده لم يأت من رجل، بل من عذراء فقط".

(تجسد الكلمة ٣٧: ٣).

الكائن مع الآب وهو في الجسد حوَّل إلى أقنومه بداية الخلقة الجديدة:

بالتجسد

"أشرق على العالم وظهر للمسكونة متجسداً – كما قال الكتاب: "الرب الإله قد أشرق علينا" (مزمور ١١٧: ٢٧) **وأيضاً: "أرسل كلمته فشفاهم"** (مزمور ١٠٦: ٢٠) **وأيضاً: "لا رسول ولا ملاك بل الرب نفسه خلصهم"** (أشعياء ٦٣: ٨)".

(تجسد الكلمة ٤٠: ٥).

هذا الإشراق هو إنارة "**الجميع بنوره**"، وهو عطية "**التعليم الصحيح الإلهي عن أبيه**" (تجسد الكلمة ٤٠: ٧)، لكن ذلك ليس هو العمل العظيم وحده، فقد كانت كل الخليقة "**تنال النور (المعرفة) والحياة والوجود – بسبب – عناية الكلمة**" (٤١: ٤).

إن خدمة الكلمة الكونية سابقة على تجسده، و لم تتوقف عندما تجسد، فقد كانت لديه خدمة أخرى للذين في الجسد، أي البشر (٤٢: ٤). فهو كائن "بقدرته

الذاتية" في كل الكون (٤٢: ٦) وفي كل جزء من الكون (٤٢: ٦) لكن **النقلة الأكبر** هي:

"الذي يضبط كل الأشياء ويعطيها الحياة ...
قد استخدم جسداً بشرياً كأداة له؛
ليُظهر فيه الحق ويعلن الآب؛
لأن البشرية أيضاً هي جزء حقيقي من كل (الخليقة)".

(تجسد الكلمة ٤٢: ٦).

فالإعلان عن الآب بواسطة التجسد، وإعلان الكلمة عن نفسه بواسطة الأعمال ... كل هذا ينقلنا إلى الحقيقة الكبرى، وهي أن تجسد الكلمة أو "الحضور المتجسد" هو حضور يعلن الثالوث:

"لأن مَن هو الذي ينكر الآب، ولا ينطق بالحق عن الآب، إلاَّ الذي ينكر الابن الذي يعلن الآب؟
وكيف يمكن أن يُعَد أرثوذكسياً مَن يؤمن بالروح، بينما هو يتكلم بالإثم عن الكلمة الذي يعطي الروح؟
ومَن يمكنه أن يثق أنه يؤمن بالقيامة وهو ينكر – كما هو حادث الآن – المسيح باكورتنا نحن من الأموات؟
وكيف لا يأثم في حضوره المتجسد الذي بوضوح ينكر الميلاد الحقيقي من الآب".

(ضد الأريوسيين ١: ٨)[١].

وقد لخص القديس أثناسيوس الحضور المتجسد هكذا:

"إذن فقد جاء المخلص إلى العالم من أجل الشهادة،
ولكي يقاسى الموت من أجلنا،

---

(١) راجع ترجمة مركز دراسات الآباء – الطبعة الثالثة – ص ٤٤، ٤٥.

ويقيم البشر،

وينقض أعمال إبليس،

وكان هذا هو سبب حضوره بالجسد".

(ضد الأريوسيين ٢: ٥٥).

هذا الحضور الجسدي هو كينونة الابن في الجسد، وهو:

"بداية القيامة من الأموات ...

لأن الكلمة لبس جسدنا ...

وصار أول الذين خُلقوا من جديد".

(ضد الأريوسيين ٢: ٦٦).

هو خلق جديد، وهو كلام الوحي في (أمثال ٨: ٢٢) الذي أساء الأريوسيون فهمه عن قصد؛ لأن عبارة "الرب خلقني أول طرقه" ليست خاصة بأقنوم الكلمة، بل هي خاصة "بحضوره الجسدي"، ولذلك يقول أثناسيوس:

"الموت خاص بالجسد،

كما أن الموت صفة من صفات الجسد،

هكذا أيضاً الحضور المتجسد، هو خاص بخلق جسد المخلص الذي جعله أول الخلقة الجديدة، فصار بذلك باكورة الجنس البشري؛ لأنه لبس الجسد البشري".

(ضد الأريوسيين ٢: ٦٦).

الحضور المتجسد للابن الكلمة في الكون هو حضوره الذاتي المتجسد:

إذا كانت كل الكائنات بالابن الكلمة "به وفيه تحيا وتتحرك" (أع ١٧: ٨ – تجسد الكلمة ١: ١)، وكان الكلمة "**ساكناً في الإنسان**" قبل السقوط (٥: ٢)، فالكلمة كما ذكرنا من قبل ونعيد تكرار هذه الحقيقة الأساسية "**يملأ الكل**" (٨: ١)، والكلمة "**فوق الجميع**" (٩: ٢)، فهو – الابن – يعمل في الكون دائماً ويعمل بشكل خاص من أجل خلاص الإنسان (٣١: ٣)، وهو – أي الكلمة – يعطي الحياة (٤٢: ٦).

في الفصل (١٧) من تجسد الكلمة يؤكد معلمنا العظيم هذه الحقائق الثابتة:

*** لم يكن محصوراً في الجسد.**

*** بينما كان في الكون، لم يكن الكون محروماً من قدراته ενεργείας"...**

*** غير أن العجيب و(المدهش) جداً هو أنه الكلمة الذي لا يحويه شيء، بل هو نفسه يحوي كل الأشياء.**

*** وبينما هو كائن في كل الخليقة**

إلاَّ أنه، حسب جوهره،

هو متميز عن كل الخليقة،

لكنه

في كل شيء بقوته".

(تجسد الكلمة ١٧: ١ – راجع الأصل اليوناني ص ١٧٤).

هذا وصفٌ دقيق لعلاقة الابن كلمة الآب بالكون قبل تجسده، وهو ذات الوصف الدقيق لنفس العلاقة بعد التجسد.

وهذا الوصف في حد ذاته كاف لتوضيح الفرق بين التعليم الرسولي الذي صاغه أثناسيوس، وبين ما ينادي به الأنبا بيشوي مطران دمياط الذي أراد أن يفصل بين الجوهر والأقنوم والقوة الفاعلة أو القدرة؛ لكي يهدم – بهذا الفصل – الشركة في الطبيعة الإلهية[١]. هذا الفصل هو عودة صريحة لا جدال عليها إلى هرطقة أنوميوس Eunomius . وهنا في هذا المجال بالذات، إذ يبدو أن علاقة الابن بالكون هي علاقة قائمة على القدرة وعلى العناية الإلهية ... نؤكد لمجي الجدل الأجوف أن كلام معلمنا الكبير أثناسيوس – وهو فعلاً العظيم في بطاركة الإسكندرية – يجيء في إطار الرد على "أوهام البعض"[٢] الذين حاولوا عن جهل "حصر" الكلمة في الجسد كاعتراض منهم على تجسد الكلمة.

هنا ومن سياق الكلام، نؤكد على أن تجسد الكلمة لم يكن تجسداً **لقدرة** الرب يسوع فقط؛ لأن هذا ما يريد شهود يهوه أن يسمعوه، وأن اللعب بالألفاظ من أجل صرف الأنظار عن حقيقة التجسد، هو تلك الحقيقة التي وصفت بأنها paradoxotaton / παραδοξοτατον أي paradoxical.

* ذلك لأن الكلمة هو الحياة وأعطى جسده الحياة كما هو وارد في فصل (١٧: ٢).

* وأن الكلمة كان في الجسد، وفي الكون، وفي الآب (١٧: ٤).

ولذلك يجب علينا أن نفهم الفعل "نزل من السماء" هكذا حسب تعبير آباء نيقية ٣٢٥م:

– "نزوله إلينا كان بسببنا" (٤: ٢).

– "نزل إلى عالمنا كلمة الله الذي بلا جسد،

---

(١) راجع في ذلك أعمال مؤتمر "تثبيت العقيدة"!!! في الفيوم عام ٢٠٠٩.

(٢) يقول القديس أثناسيوس: "لأنه لم يكن محصوراً في الجسد كما قد يتوهم البعض" (تجسد الكلمة ١٧: ١). راجع ترجمة د. جوزيف موريس فلتس – نصوص آبائية رقم ٦٢ ص ٤٨.

عديم الفناء وغير المادي" (٨: ١).

– لقد نزل إلينا، وهذا هو تنازله الإلهي (راجع ١٦: ١).

– "ليظهر محبته لنا ويفتقدنا (٨: ٢).

هذا الظهور لم يكن مجرد فكرة و لم يكن مجرد ظهور؛ لأنه

"لو أراد مجرد الظهور، لأمكنه أن يتمم ظهوره الإلهي بطريقة أخرى أسمى وأفضل ...

لكنه أخذ جسداً ... وجعله جسده الخاص؛

... ليسكن فيه ويظهر ذاته به".

(تجسد الكلمة ٨: ٣).

فالتجسد هو:

– سكنى الكلمة بين البشر (راجع ٩: ٢).

– لقد جاء "رب الكل ومخلص الجميع ابن الله ليضع حداً للموت" (٩: ٤)

– "الكلمة بذاته اتخذ لنفسه جسداً" (١٠: ٤)

– هو تجسد المخلص وظهوره المبارك (١٠: ٦) لأنه الأقنوم نفسه الكلمة الذاتي (١١: ١) كلمة الآب (١١: ٢، ٣).

– هو حضور المخلِّص ربنا يسوع بشخصه؛ لأنه هو "صورة الآب" (١٣: ٧، ٩ – ١٤: ٢ – ٢٠: ١).

– هو تجسد الرب الإله الحق كلمة الآب (راجع ١٥: ٦)

تلك هي الأوصاف التي وصف بها القديس أثناسيوس تجسد الكلمة، والتي وردت قبل الفصل (١٧) والتي لا يجب لمن له ضمير حي نقي أن يعبث بها لكي يفصل الأقنوم الكلمة الذاتي عن الآب أو عن الجوهر الإلهي أو عن القوة الأقنومية؛ لأن الابن هو هذه القوة هي التي حوَّلت الجسد القابل للموت إلى جسد "بفضل اتحاده بالكلمة، لم يعد خاضعاً للفساد (الخاص به) حسب طبيعته، بل بسبب كلمة الله الذي حلَّ فيه،

فإن الفساد لم يلحق به" (٢٠: ٤ – راجع أيضاً ٩: ٢).

ولأن الكلمة "هو الحياة والقوة δύναμις فقد نال الجسد منه قوة" (٢١: ٥)، ولذلك فقد صار جسده هو "جسد ذاك الذي هو الحياة عينها" (٢١: ٧). وبالقيامة تحول جسد الكلمة "في اليوم الثالث حاملاً عدم الفساد وعدم التألم اللذين حصلا لجسده كعلامة الانتصار على الموت" (٢٦: ١).

وما هو عدم الفساد وعدم التألم إلاَّ صفات اللاهوت.

فقد أسس الرب الحياة الأبدية، ولاحظ قوة التعبير: "لكي نستطيع نحن أيضاً أن نرث الحياة الأبدية، إذ أن هذه الحياة كائنة فيه" (الرد على الأريوسيين ٢: ٧٧). هنا نكتفي بعبارة الرسول بولس حتى لا يشتت أصحاب الضمائر الملتوية، البسطاء؛ لأنه يقول: "المسيح قوة الله" (١ كور ١: ٥٤ الرد على الأريوسيين ٢: ٤٢). فقد هيأ الآب له الجسد المخلوق لأجلنا "لكي نتجدد ونؤلَّه" (ضد الأريوسيين ٢: ٤٧). وهكذا حقاً تعترف الكنيسة حسب التقوى الأرثوذكسية في صلاة الصلح للقديس ساويروس، وتقول:

"أيها المسيح إلهنا القوة المخوفة غير المفهومة التي لله الآب،
الجالس على العرش الملتهب الشاروبيمي،
والذي تخدمه القوات النارية ..".

(صلاة صلح ثانية – القداس الغريغوري).

كذلك يقول القديس أثناسيوس:

"الابن الكلمة الحي هو واحد.
هكذا، فإن القوة الفاعلة والعطية،
التي بها يقدس ويضيء،
ينبغي أن تكون واحدة كاملة وتامة.
هي التي يقال عنها إنها تنبثق من الآب

لأنها من الكلمة.

هي التي تُشرق وتُرسَل وتُعطَى

لأن الابن يُرسَل من الآب .. يوحنا ٣: ١٦".

(الرسالة إلى سرابيون ١: ٢٠، راجع الرسالة الثالثة: ٥).

الكلمة الذاتي والكلي القدرة:

الكلمة كائن مع الآب وفي الآب، هو الكائن كلي القدرة (٨: ٣). والكلمة الذاتي أخذ جسداً ذاتياً Ιδιόυ σώματος والكلمة اليونانية Idios / Ιδίος تؤكد ليس مجرد اتخاذه جسداً، بل صار الجسد ملكاً شخصياً له، ولذلك، فإن تقديم الجسد للصلب هو عمل شخصي ذاتي "بذبيحة جسده الذاتي" (١٠: ٥). وبالرغم من عدم استخدام كلمة أقنوم في كتاب تجسد الكلمة إلاَّ أن المرادف لها هو تعبير "الكلمة الذاتي" لأن الكلمة هو ليس صفة أو قوة تضاف إلى الله، بل هو الوجود الخاص أو الذاتي (ضد أبوليناريوس الكتاب الأول فقرة ١٨).

هنا يجب أن ندرك أن خصوصية الكلمة في الثالوث هي التي جعلت الوجود أو الكينونة الذاتية أو الشخصية تأخذ "الجسد الذاتي". وهكذا "عندما خلق الله ضابط الكل الجنس البشري بواسطة كلمته الذاتي Ιδιόυ Λογου (١١: ١)، فقد أعطى – بسبب صلاحه – للجنس البشري "نصيباً في **صورته الذاتي** ربنا يسوع المسيح، وخلقهم على صورته ومثاله، حتى أنه – بسبب تلك النعمة – فإنهم عندما يرون تلك الصورة، أي كلمة الآب، يمكنهم عن طريقه أن يصلوا إلى معرفة الآب (١١: ٣). الصورة الذاتية للآب أي الابن idias eikonos / Ιδίος εικονος هو صورة الكيان الأبوي الذي يحمل ذات الصلاح والمحبة، هو صورة الآب (١٤: ٢) ولذلك هو يعلن الآب وليس ذاته فقط (١٥: ٧ – ١٦: ٥).

والمحبة ليست محبة الابن وحدها، أو محبة الآب وحدها .. التقسيم الذي ظهر عندنا غريبٌ على التعليم الأرثوذكسي.

الحضور المتجسد بعد ١٦ قرناً من الزمان:

لا أستطيع أن أزعم أنني قدمت كل ما قاله المعلم العظيم عن تجسد الرب، وهو الذي قال في خاتمة كتابه "**الأعمال التي حققها المخلص بتأنسه عظيمة جداً في نوعها وكثيرة في عددها، حتى أنه إذا أراد أحدٌ أن يحصيها فإنه يصير مثل الذين يتفرسون في عرض البحر ويريدون أن يحصوا أمواجه**" (فصل ٥٤: ٤). في هذا الفصل بالذات كتب المعلم العظيم عن تجسد الرب وموته وقيامته أن هذه ليست أعمالاً بشرية:

"من لا يستطيع أن يرى المسيح بعقله،
عليه أن يدركه على الأقل من أعمال جسده،
ويفحص إن كانت هذه أعمال بشرية أم أعمال الله،
فإن كانت أعمالاً بشرية جاز له أن يسخر .. ،
أما إن لم تكن بشرية، بل هي أعمال الله، ...
فليتعجب لأنه بواسطة وسائل عادية جداً كهذه،
أُعلنت لنا الإلهيات.
ولأنه بواسطة الموت طال عدم الموت الجميع،
ولأنه بتأنس الكلمة عُرفت عنايته بكل الأشياء ...
لأن كلمة الله صار إنساناً لكي يؤلِّهنا نحن،
وأظهر نفسه في جسدٍ؛ لكل نحصل على معرفة الآب،
وأحتمل إهانة الموت لكي نرث نحن عدم الموت ...
لأنه غير قابل للألم أو الفساد،
إذ هو الكلمة ذاته،

وهو الله،

فإنه بعدم قابليته للتألم حفظ وخلص البشر

الذين يتألمون والذين لأجلهم احتمل كل هذا".

(تجسد الكلمة ٥٤: ١ – ٣).

هكذا لا يجب انتزاع عبارة "**صار إنساناً لكي يؤلِّهنا**" من سياقها؛ لأنها تجيء في سياق الكلام عن استخدام الأمور العادية، وهي هنا حصراً:

- الولادة من العذراء.
- المعمودية.
- الصلب.
- الموت.
- القيامة.

كل هذه أعمال الله في الجسد.

لكن هذه الأعمال فتحت لنا ما سبق وأن ذكره معلمنا الكبير عن أن "عدم الموت" هو صفة من صفات الله، وأن "عدم الألم" هو أيضاً من صفات الله ...

قدَّس الجسد (تجسد الكلمة ١٧: ٥)

لازال الجسد خاضعاً لأحكام التوراة، وكأن التجسد لم يحدث، أو كأن الكلمة قدَّس جسده هو وحده ولم يقدس أجسادنا نحن. هكذا يُطَارد تجسد الرب لكي يُحَاصَر في حَدَثٍ خاصٍ به هو – أي بالكلمة – لا يؤثر في علاقتنا نحن به، في الوقت الذي فيه جاء الكلمة ونزل إلينا نحن، وعاش بيننا في الجسد لكي يجعلنا "قادرين على أن نشترك في إلوهية الكلمة" (أبكتيتوس: ٦). لأن الجسد بالاتحاد صار خالداً وصار روحانياً ورغم أنه من الأرض إلاَّ أنه جُعل قادراً على أن يدخل من أبواب السماء (المرجع السابق: ٨).

تجسد وحضور الكلمة المتجسد، والثقافة الإنسانية:

لعل أول ما يجب أن نلاحظه هو أنه وإن كانت كل الثقافات الإنسانية عبر العصور قد أعطت اهتماماً كبيراً للفكر الإنساني، ولكن هذا الاهتمام ينحو إلى "مناحي" متفرقة:

١– فلا زالت الفكرة، سواء أكانت صائبة أم خاطئة أهم من الإنسان نفسه صانع كل الأفكار، وكثيراً ما يصبح الإنسان ضحية أفكاره أو أفكار غيره.

لقد جاء التجسد لكي يضع الإنسان – كحياة – قبل كل الأفكار، وقبل كل الأنظمة التي هي ليست إلاَّ مجموعة أو مجموعات من الأفكار، قد تطلق الحرية أو تستعبد الإنسان.

لقد كانت الماركسية ولا زالت هي خير مثال – قريب جداً من واقع الحياة – على استعباد الإنسان للنظام والعقيدة الذي خلق مجتمعاً مقيداً غير قادر على الإبداع، ولكن ظهر أن الصراع ضد الأدبيات غير الماركسية مثل "عنبر السرطان" للأديب الروسي سولجنيستين، و"دكتور جيفاجو" للأديب بوريس بارستناك وغيرها، خير دليلٌ على أن معسكرات الاعتقالات التي أقامها ستالين عجزت عن استعباد الإنسان. فلا زال الإنسان هو الإنسان، هو "ظل الكلمة" كما قال أثناسيوس لا يستطيع أن يحيا إلاَّ حراً، وعندما تُقيَّد حريته، يموت الإبداع وتتحول الحياة إلى "مستنقع" آسن.

٢– ولأن الإنسان هو صورة الله، تحول نهر الكتب وثورة المعلومات في شبكة المعلومات إلى محيط من المعرفة لا مثيل له في التاريخ. لكن كل ذلك يعيد إلينا التعليم القديم، وهو أن المعرفة وحدها لا تقود الإنسان نحو الحرية والتقدم؛ لأن "فداء العقل" لم يكن عملاً ثانوياً، إنما جاء الكلمة وأنار الإنسانية **بالتعليم وبالحياة، وأعطى حياته الذاتية دواءً وترياقاً لعدم الموت**، لذلك فقد ثُبتَ في الفكر – بالرؤيا الإيمانية – بأن "الأبدي" هو هدف المعرفة، وأن المعرفة الآنية التي تخلق احتياجات وتستجيب

لشهوات الإنسان هي نقطة الضعف في الفكر الإنساني. ولا زال مجتمع الاستهلاك يقدم لشهوات الإنسان كل يوم ما يصرف الإنسان عن استيعاب حاجته الحقيقية، ألا وهي اكتشاف الخلود في يسوع المسيح؛ لأن غياب الخلود أو الحياة الأبدية أصاب الإنسانية بعدم الاتزان، إذ صار ما هو "زماني" و"بائد" مطلباً يموت الإنسان في سبيل الوصول إليه.

٣– أما على مستوى الحياة المسيحية المعاصرة، فالحديث مؤلم وحزين. فنحن لا زلنا نتحدث عن "العبادة"، وهي كلمة لا وجود لها في العهد الجديد ولا في كتابات الآباء. نحن لدينا "الخدمة"، فليست الصلاة عبادة، بل الصلاة شركة، وليست الأسرار أو السرائر الكنسية علامات منظور لنعمة غير منظورة، بل هي استعلانات الحضور المتجسد، وشركة في حياة الثالوث في الابن وبواسطة الروح القدس.

لقد غير التجسد مضمون الصلاة، بل كل مكونات الصلاة، والدليل هو مكونات الصلاة كما قدَّمها الرب نفسه في الصلاة الربانية. التجسد هو الذي أعطى الإنسان البنوة، والتجسد هو الذي أدخلنا في ملكوت الله، وأصبح الكلمة هو طعام الإنسان الروحي في التعليم، وفي الإفخارستيا. ولكننا لا زلنا ندور في حلقة مفرغة نحاول البحث عن العلاقة بين الكلمة والأسرار، بينما هما معاً كما قال يعقوب السروجي: "الكلمة خطوبة النفس، والسرائر زواج"، فالتجسد لا يسمح لنا بعبادة عقلية لا شركة فيها في الحياة الإلهية.

٤– وأخيراً "القوة" لا تتجسد، بل يتجسد الأقنوم، كما أن المواهب لا تحل، وإنما يحل الروح القدس، والنعمة ليست قوة، بل هي شركة. لقد جاء اتحاد اللاهوت بالناسوت لكي يبيد الفصل، أي يبيد "الموت" بكل صوره، وجاء نفس الاتحاد بإبادة كل الفواصل التي تفصل الإنسان عن الله، ولذلك تحول التسبيح في الابصلمودية إلى إيقاع إلهي/إنساني يقدِّم إعلانات الحضور المتجسد في الصلاة والتسبيح والشكر والتمجيد.

٥- جاء التجسد وجعل الكنيسة جسداً واحداً لم يُكسر على الصليب، ولذلك يقول معلمنا أثناسيوس: "**لم يمت موت يوحنا بقطع الرأس، ولا موت أشعياء بنشر الجسد، وذلك لكي يحفظ جسده غيرَ منقسمٍ وصحيحاً تماماً حتى في موته، وحتى لا تكون هناك حجة لأولئك الذين يريدون أن يقسِّموا الكنيسة**" (تجسد الكلمة ٢٤: ٤).

ولذلك لا زال ذلك النسيج الجديد يجمع كل القديسين الأحياء والظافرين السعداء، هؤلاء معنا أعضاء في الجسد الواحد.

هذا قليل من كثير، ولكن أقول لكل من يفتش عن فكرة أو عبارة: إذا كنت تلميذاً للكلمة المتجسد، فتش عن "شخص الكلمة المتجسد"، فهو أعظم من كل الأفكار، وفي عصرنا زاد الكلام وكُثُرَ الحديث .. وأصبح الاهتمام بالشخص قليلاً مع أن الكلمة صار جسداً لا لكي يصبح كلمات تُكتب بل حياة تُسكب في حياتنا وكياننا الميت.

د. جورج حبيب بباوي